



رابطة العالم الإسلامي

الأمانة العامة

الإدارة العامة للمؤتمرات والمنظمات

الثقافة الإسلامية المقومات، العوائق، البدائل

إعداد

الدكتور عبد الله الجباري

أستاذ التربية الإسلامية في جامعة محمد الخامس - المغرب

مقدم إلى مؤتمر مكة المكرمة الخامس عشر
الثقافة الإسلامية.. الأصول والمعاصرة

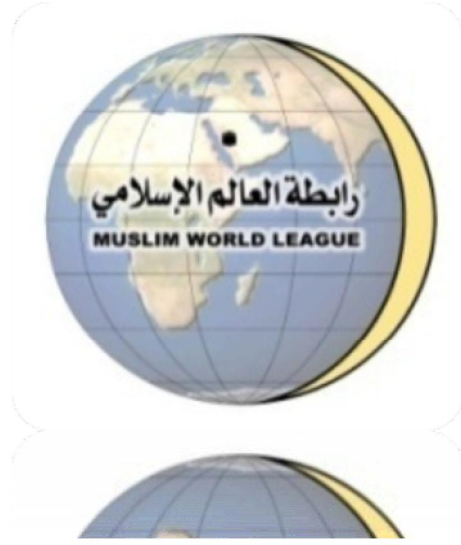
الذي تنظمه

رابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

٤-٦ / ذو الحجة / ١٤٣٥ هـ

٢٨-٣٠ / سبتمبر / ٢٠١٤ م



رابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة - المملكة العربية السعودية

صندوق البريد (٥٣٧) أو (٥٣٨) مكة المكرمة (٢١٩٥٥)

هاتف: ٠٠٩٦٦١٢٥٦٠٠٩١٩ - الفاكس: ٥٦٠١٣١٩-٥٦٠١٢٦٧

برقياً: رابطة - مكة، تليكس: ٥٤٠٠٠٩ و ٥٤٠٣٩٠

www.themwl.org

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

قد لا نحيد عن الصواب إن ادعينا أن الاهتمام بواقع الثقافة العربية الإسلامية إجمالاً، وسبل تجاوزه ما يعترض سبيلها من معوقات على وجه الخصوص، ضئيل جداً إذا ما قارناه بغيره من الموضوعات المتداولة بين المثقفين العرب اليوم، فلا تجدهم مهتمين بالمسألة الثقافية والبناء الثقافي للأمة نظير اهتمامهم بقضايا أخرى، مثل انغماسهم في الاهتمامات اليومية، ومستقبل الحياة المهنية، وفي أحسن الأحوال تجدهم مرتمين في أحضان العمل السياسي وما يستتبعه من استقطابات واصطفافات تنظيمية وإيديولوجية.

وإذا ما يمموا وجههم نحو العمل الثقافي، فمن النادر أن نلفي في أعمالهم الثقافية إبداعاً وإنتاجاً، بقدر ما نلمس استهلاكاً لثقافة الآخر وإعادة نشرها، مع العلم أن الثقافة والهوية الثقافية «ستصبح مصدراً متزايداً للصراعات بين الشعوب»^(١).

هذه الغفلة عن الثقافة وهمومها؛ تفرض علينا أن نرجع إلى «الثقافة الإسلامية» لننظر فيها وفق الإشكالات التالية:

- ما هي أهم مقومات الثقافة العربية الإسلامية؟
- وما هي المعوقات التي تهدد تلك المقومات؟
- وما البدائل المقترحة لتجاوز العقبات الحضارية المهددة للوجود الثقافي للأمة؟

(١) المهدي المنجرة، انتفاضات في زمن الديمقراطية: ٥١.

سبل تجاوز المعوقات	معوقات الثقافة الإسلامية	أهم مقومات الثقافة الإسلامية
<ul style="list-style-type: none"> - الشمول والتكامل. - أهمية المقاصد. - استحضار البعد الروحي للشريعة الإسلامية. 	<ul style="list-style-type: none"> - الوصل الشيوقراطي - الفصل العلماني 	<p>الدين الإسلامي</p>
<ul style="list-style-type: none"> - التمكين. - الاجتهاد. - الانتشار. 	<ul style="list-style-type: none"> - التهميش. - التشويش. - التشويه. 	<p>اللغة العربية</p>
<ul style="list-style-type: none"> - اعتماد الموضوعية 	<ul style="list-style-type: none"> - التجهيل. - التقديس. 	<p>التاريخ الإسلامي</p>
<ul style="list-style-type: none"> - العلم بالله - ربط الأعمال بأحكام الله. - ربط المعرفة بالخير. 	<ul style="list-style-type: none"> ● المرتبطة بالآخر: - الاستعلاء. - الإلغاء. - الاستعداد. ● المرتبطة بالذات: - الاستتباع. - الابتداع. 	<p>القيم</p>

أولاً: أهم مقومات الثقافة الإسلامية:

قد تتعدد مقومات وأسس الثقافة الإسلامية، لكنها غالباً تقوم على العناصر والمقومات الآتية:

أ- الدين الإسلامي: لا نبالغ إذا قلنا: إن الدين الإسلامي عنصر أساس ومكون رئيس للثقافة السائدة في كل الأقطار الإسلامية، فهو يشكل عنصر وحدتها منذ انتشاره خارج شبه الجزيرة العربية، وظهرت تجلياته في كل مناحي الحياة للشعوب والمجتمعات المسلمة، ولم يقتصر أثره على مستوى العقيدة (توحيد الله)، والشريعة (إصدار القوانين والتشريعات المنظمة للمجتمع)، بل كان منظومة قيّمة متكاملة، نلمس تجلياتها على مستوى أخلاق المسلمين بكل فئاتهم^(١).

وبما أن «الفن ابن الدين» كما يقول برجسون^(٢)، فإن القيم الإسلامية تجد موطئ قدم في كل فنون المسلمين، في الأدب شعراً ونثراً، ولقد ازدهر فن الخط عند المسلمين، وكان النص القرآني المستند الأساس للخطاطين، حيث أبدعوا وتفننوا في رسم لوحات خاصة بالبسملة وغيرها من الآيات الكريمة وأسماء الله تعالى، كما كان للإسلام أثر واضح في العمران، حيث أصبحت الزخرفات والنقوش في المساجد بمثابة معارض فنية، مثل جامع القرويين بفاس، وجامع قرطبة بالأندلس، والجامع الأموي بدمشق، والجامع الأزهر بالقاهرة، ولتتميز الفن والمعمار الإسلامي، خصص متحف اللوفر الباريسي جناحاً مستقلاً لعرض القطع والآثار الفنية الإسلامية، ونبه مدير المتحف هنري لوارين إلى هذا

(١) مثل قيم ومبادئ التجار المسلمين ودورها في نشر الدعوة الإسلامية في شرق آسيا.

(٢) Henri bergson: creative evolutin. نقلاً عن: الإسلام بين الشرق والغرب: ١٤٨.

التمييز فقال: «أردت أن أجعل منه قسماً مستقلاً، لأني اعتبر أنه من غير المقبول أن تكون فنون الإسلام مجموعةً في فئة بسيطة داخل قسم الآثار الشرقي»^(١).

ب- اللغة العربية: عندما نركز على ثقافة أمة من الأمم، فلا نُغفل المكون اللغوي لتلك الأمة، والأمة الإسلامية ليست موحدة اللغة في جميع أقطارها، لكن اللغة العربية مركزية محورية في الثقافة الإسلامية، لما لها من علاقة وثيقة بالدين الإسلامي، وذلك لعدة اعتبارات، منها أنها لغة القرآن الكريم، ولغة النبي ﷺ التي بلور من خلال مبانيها ومعانيها أحاديثه النبوية التي تعد مع القرآن الكريم المصدرين الأساسيين للتشريع، إضافة إلى أنها لغة العبادة.

ورغم انتشار اللغة العربية في أرجاء العالم الإسلامي، إلا أنها لم تنتشر بالقهر والغلبة، بدليل احتضان غير العرب لها، وإبداعهم بلسانها، وتمكنهم من قواعدها، من أمثال الإمام البخاري الخراساني صاحب الصحيح، والزمخشري الفارسي صاحب الكشاف، وابن آجروم الأمازيغي صاحب المقدمة^(٢)، ومحمد إقبال الباكستاني، وأبي الحسن الندوي الهندي، وتبوأ اللغة العربية في إفريقيا مكانة لا تفتقر، حيث كانت لغة العبادة والثقافة والتبادل التجاري والمكاتبات في مملكة غانا، واستمر ذلك حتى في عهد الاستعمار، ولم يقتصر انتشار اللسان العربي على غانا فحسب، بل كانت «العربية لغة التخاطب بين قبائل نصف القارة الإفريقية» كما قال توماس أرنولد^(٣).

(١) أدلى بهذا التصريح لشبكة (skynews عربية) في ١٦ / ٩ / ٢٠١٢.

(٢) الشهيرة بالمقدمة الآجرومية.

(٣) نقلاً عن مقال: اللغة العربية في منطقة جنوب الصحراء، للدكتور عبد العلي الودغيري. مجلة

الإسلام اليوم، ع: ٢٠، ص: ٩٣.

ولم يفتح غير العرب على اللغة العربية تعلماً وقراءة فقط، بل توسلوا بالألفباء العربية في كتابة الفارسية والأوردية والتركية في مرحلة ما قبل مصطفى كمال أتاتورك، والأمر ذاته كان في جزء غير يسير من إفريقيا، فكانت لغات الهوسا، والزّرما، والفلانية، والسواحلية، والأمازيغية، والأفريكانية (لغة جنوب إفريقيا التي كان يتكلمها حوالي مائة ألف إفريقي)، وغيرها من اللغات؛ تُكتب بالحرف العربي، وظل الأمر كذلك حتى سيطر الاستعمار على القارة السمراء^(١)، وانتبه المستعمر إلى الرغبة الجامحة للأفارقة في تعلم العربية^(٢)، ولم تكن هذه الرغبة وهذا الاهتمام من المسلمين غير العرب؛ إلا للتعرف على روح وجوهر القرآن، لأن الترجمة لم تحقق مرادهم.

تقول عميدة الاستشراق د. أنا ماري شمل: «إن ترجمته لا يمكن إلا أن تكون تقريبية ضمنية لا تضارع الأصل، إذ لا أحد مهما بلغ من الحدق والكفاءة؛ يقدر أن يترجم ذلك الإعجاز الإلهي إلى لغة أخرى»، ودليلها في ذلك: «أن الإيقاع اللفظي والموسيقى الداخلية وتعدد طبقات النبر همساً وجهراً، وغير ذلك مما تحفل به اللغة العربية - ناهيك بلغة القرآن ونظمه المعجز - كل ذلك يجعل النقل من العربية إلى غيرها عسيراً»، وخلصت إلى أن: «كل ترجمة للقرآن مهما بلغت؛ عاجزةٌ عن الوفاء بروح النص ولفظه»^(٣).

(١) عبد العلي الودغيري، اللغة العربية في منطقة جنوب الصحراء، مجلة الإسلام اليوم، ع: ٢٠، ص: ٩٩.

(٢) في سنة ١٨٥٦ م، كتب حاكم السنغال إلى وزير المستعمرات الفرنسية تقريراً جاء فيه: «إن الرغبة التي يديها الزنوج في تعلم العربية؛ لهي مصيبة بالنسبة إلينا، ويجب علينا أن نحذر، بل يجب علينا ألا ننمي هذه الرغبة بأية حال من الأحوال» نقلاً عن مقال: «اللغة العربية في منطقة جنوب الصحراء»، ص: ١٠٢.

(٣) مقدمة أنا ماري شمل لكتاب «الإسلام كبديل» لمراد هوفمان: ١١.

ج- التاريخ الإسلامي: يصعب فصل تاريخ أمة من الأمم عن ثقافتها بمعناها الشامل، ولقد تفتن المسلمون لأهمية التاريخ في المعمار الثقافي الإسلامي، فعمدوا إلى التأريخ من خلال:

- التأريخ العام والشامل: مثلما فعل الطبري.
- التأريخ للأعلام: مثل الطبقات الكبرى لابن سعد، وسير أعلام النبلاء للذهبي.
- التأريخ للمناطق والأمصا: مثل تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، وتاريخ دمشق لابن عساكر.
- التأريخ لفئات خاصة: تاريخ الخلفاء، طبقات الفقهاء، طبقات المفسرين، وأخبار القضاة.

ولم تكن عناية المسلمين بالتاريخ عبثاً، بل كانت تُضمّر معرفتهم العميقة بأهميته، وأن الأمة التي لا تاريخ لها؛ تعاني من نقص حضاري وعوز ثقافي، كالشجرة غير المنغرسه الجذور، سرعان ما تقتلعها أضعف ريح، وقد تحقق حدس علماء المسلمين، ففي الوقت الذي تكشف فيه الأمة الإسلامية اليوم عن تاريخها وأمجادها دون خجل أو وجل، لا زالت بعض الأمم تعاني من عقدة التاريخ رغم تفوقها التقني والعلمي، فدولة «إسرائيل» تنفق بسخاء على البحث التاريخي، وتشتغل بجد في البحث الأركيولوجي، فلم تتوقف أعمال الكشف والتنقيب في مدينة القدس، وبخاصة تحت المسجد الأقصى، بحثاً عن شرعية تاريخية تسد ثغرة حضارية تعاني منها أشد المعاناة.

وقد تفتنت منظمة اليونسكو لأهمية البعد التاريخي في صناعة الثقافة، فاهتمت بالمدن والمناطق الزاخرة بعقب التاريخ، وأدرجتها ضمن قائمة التراث العالمي، مثل مدينة القدس القديمة وأسوارها بفلسطين، ومدينة جَدَّة التاريخية

بالمملكة العربية السعودية، ومدينة فاس القديمة بالمملكة المغربية، وحاضرة زَبيد باليمن، وغيرها من المناطق، لكن المنظمة لم تلتفت إلى المدن الطارئة والمناطق المحدثة، وكأنها مُدن بلا روح.

د- القيم: المجتمعات تختلف عن بعضها البعض في كثير من القيم، وهذا هو السبب الرئيس لرفض انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبي رغم موافقتها وتنفيذها لكل ما تستلزمه تلك العضوية، والأمر ذاته وقع مع الراحل الحسن الثاني (ملك المغرب)؛ حين رُفض طلبه للانضمام للسوق الأوروبية المشتركة، ولم يصدر هذا الرفض إلا لأن قيم الإسلام لا تتناسب مع القيم الأوروبية^(١).

وأهم القيم الإسلامية التي شكَّلت وحدة متجانسة مع العقيدة والفقهِ (القانون):

- التسامح: تبنَّت المنظومة القيمية الإسلامية قيمة التسامح بطريقة عزَّ نظيرها، مثل موقف النبي ﷺ مع أعدائه الذين كانوا يتربصون به ويريدون قتله وقطع دابر دعوته منذ بداياتها الأولى، فقال لهم قولته الشهيرة: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»، كما تبنَّى الإسلام مبدأ التسامح مع غير المسلمين الذين يعيشون بين المسلمين، ولم يتعامل معهم بدونية أو احتقار، وأطلق عليهم عبارة «أهل الذمة»، ومفهومها أنهم في «ذمة الله، أي عهده، فهذا الاسم يُشعر بأن مَنْ مسَّهم بأذى فقد خان عهد الله، وعهد دينه الحنيف»^(٢)، وقد أثبتت الحقائق التاريخية أن أهل الذمة عاشوا بأمان واطمئنان بين المسلمين، وقبيل إعلان الدستور العثماني؛

(١) محمد أركون، الفكر الإسلامي، نقد واجتهاد: ٦٣.

(٢) مختارات من تراث محمد الخضر حسين: ٤٠/٢.

عقد البرلمان جلسة فقهية صاخبة خاصة حول موضوع حقوق الأقليات، قال فيها كبار المحامين من نواب أهل الكتاب: «إننا نرضى بأحكام الإسلام في ذوي العهد بكل ارتياح، ولكن لا نرضى بما يحاول الحزب القائم أن يفرضه علينا من عنده»^(١).

- الرفق: حث الإسلام على الرفق في كل شيء، فقال ﷺ: «مَا كَانَ الرَّفْقُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا نُزْعَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ»، ولم يلتزم الرفق في الظروف العادية، بل شدد عليها في أحلك الظروف وأقساها، وأقام عليها سياسته الحربية، فمَنَع «التعرض بالأذى لمن لم ينصبوا أنفسهم للقتال كالرهبان والفلاحين والنساء والأطفال والشيخ الهرم والأجير والمعتوه والأعمى والزَّمين، ومن الفقهاء من لا يجيز قتل الأعمى والزَّمين ولو كانا ذوي رأي في الحرب وتديبير، ولا يجوز قتل النساء وإن استعملن لحراسة الحصون أو رَمِينَ بنحو الحجارة»^(٢).

- العدل: نصوص القرآن والسنة تحض على العدل والتزام أحكامه في الحكم: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]، وتنبه إلى أهميته في عموم القول ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وتركز على التزامه ولو مع المخالفين ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ آلَاءَ تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، وتحذر من القيام بأفعال تنأى بالإنسان عن العدل ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُعَدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: ٣]، وغير ذلك من النصوص كثير، مما يدل على أهمية هذه القيمة وضرورة تنزيلها على واقع الأمة.

(١) زاهد الكوثري، المقالات: ٣٣١.

(٢) مختارات من تراث الشيخ محمد الخضر حسين: ٤١ / ٢.

- المساواة: لم يكتف الإسلام بالدعوة إلى المساواة بين المسلمين ومحو الفوارق بينهم، بل نبه إلى مساواة المسلمين مع الذميين رغم ما بينهما من اختلاف ديني وعقائدي، فأجاز الفقهاء للمسلم أن يوصي أو يحبس شيئاً من ماله لغير المسلمين من أهل الذمة، «وقالوا: البيع على بيع غير المسلم الداخل في ذمة الإسلام؛ كالبيع على بيع المسلم، والخطبة على خطبته كالخطبة على خطبة المسلم: كلاهما حرام»^(١).

- الحرية: الحرية أصل كل خير، ونقيضها أصل كل شر، لذا كان من أهم مقاصد بعثة النبي ﷺ أن يحرر أهل الكتاب من الآصار والأغلال التي قيدوا بها أنفسهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وهذا المقصد ذاته، نص عليه قول الله جل وعز: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ١]، لأن الكفار لم يكونوا «منفكين، أي: متحررين من عبوديتهم لغير الله إلا بعد أن جاءتهم الحجة القاطعة»^(٢)، وهي: ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾^(٣) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿ [البينة: ٢-٣]، تنادي بالحرية وتدعو إليها.

وكما طالب الإسلام بالحرية، نبه إلى المعاملات الاستبدادية التي تسلبها من أصحابها الطبيعيين، ولنتأمل حوارين للسحرة مع موسى عليه السلام، أولهما: قولهم: ﴿أَيْنَ لَنَا لَاجِرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١]، وهو صريح في استعباد فرعون واستبداده، إذ كان يستخدمهم دون أجر، ثانيهما: قولهم: ﴿إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَاتِنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ [طه: ٧٣]، وهو دليل واضح

(١) مختارات من تراث الشيخ محمد الخضر حسين: ٤٨/٢.

(٢) علال الفاسي، مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها: ٢٤٦.

على أنهم لم يتعاطوا السحر بحرية، بل كان فرعون يُكرههم عليه تعلُّماً وعملاً^(١)، ولم يواجه السحره موسى إلا بعد إيمانهم وتحررهم، لأن «الحرية تؤسس في النفوس مبادئ العزة والشهامة، فإذا نظمت الحكومة منهم جنداً استماتوا تحت رايتها مدافعةً، ولا يرون القتل سبباً إذا ما رآه الناكسور رؤوسهم تحت راية الاستبداد»^(٢).

وقد نبه كثير من العلماء والمصلحين إلى قيمة الحرية، وركزوا على أهميتها وضرورتها، قال الشيخ يوسف الدجوي^(٣): «الحرية هي من أعظم ما يتنافس فيه المتنافسون، ويعمل له العاملون، وهي الحياة على الحقيقة، بل الموت خير من حياة لا حرية فيها ولا استقلال معها، ولست ترى قوماً سلبوا الحرية إلا ماتت فضائلهم، وقُضي على إنسانيتهم القضاء الأخير، وما أبعد من يكون مستتبعاً في كل شأنه، مستعبداً في كل أمره، من أن يكون إنساناً»^(٤).

وإذا كان الدين واللغة والتاريخ والقيم من أهم مقومات ثقافة الأمة الإسلامية، فما هي أهم المعوقات التي تعترض سبيل هذه المقومات والمرتكزات؟

(١) عبد الله بن الصديق، خواطر دينية: ٣٨.

(٢) محمد الخضر حسين، الحرية في الإسلام: ٧٢.

(٣) الشيخ جمال الدين يوسف أحمد نصر الدجوي، مصري عضو جماعة كبار العلماء بالأزهر، توفي ١٣٦٥ هـ.

(٤) مقالات وفتاوى الشيخ يوسف الدجوي: ٥٨٩/٢.

ثانياً: معوقات الثقافة الإسلامية

أ- على مستوى الدين الإسلامي: تعترض الثقافة الإسلامية عدة معوقات على هذا المستوى، أهمها معوقان اثنان:

أولهما: الوصل الشيوعي: استغلال الدين واتخاذهِ وسيلةً للسيطرة والتحكم في إطار نظام حكم شيوعي واضح، مثل نظام ولاية الفقيه بإيران، حيث السيطرة المطلقة لفقهاء الشيعة خريجي الحوزات العلمية، إذ تُسند إليهم الوظائف المهمة، فهم أعلى جهة مختصة في شؤون السياسة، كما أن جميع السلطات تُركز في أيديهم.

ثانيهما: الفصل العلماني: بإقصاء الدين وتميُشه كليةً، حيث حاول بعض المثقفين والسياسيين إقصاء الدين الإسلامي (عقيدةً وأحكاماً وقيماً) وتميُشه عن الحياة العامة، وحاولوا فرض مبادئ العلمانية وقيَمها المستوردة من الخارج، وقد نادى بذلك الشيخ علي عبد الرازق^(١)، الذي ادعى في كتابه «الإسلام وأصول الحكم» أن النبي ﷺ لم يكن نبياً رسولاً فقط، بل كان ملكاً يَسوس الناس بما يراه مصلحة، كما جرّد الخلافة الراشدة عن كل الصفات الدينية، وادعى أنها نوع لا ديني في سياسة الحكم، وهذا منه غلو وتطرف لم يسبقه إليه حتى الكتاب غير المسلمين، مثل جورج زيدان الذي اعتبر الخلافة الراشدة «خلافة دينية، أساس أحكامها التقوى والرفق والعدل بما لم يُسمع بمثله في عصرٍ من العصور»^(٢).

(١) كان الشيخ علي عبد الرازق عضواً في جماعة كبار العلماء، وقاضياً في المحاكم الشرعية، ثم صار وزيراً للأوقاف.

(٢) نقلاً عن «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم» للشيخ محمد الخضر حسين: ٢١٤.

إضافة إلى هذا الغلو الصادر من الشيخ علي عبد الرازق، فإنه ملاً كتابه بتأويلات بعيدة، وأخبار زائفة، رد عليها كثير من العلماء، منهم الشيخ محمد الخضر حسين الذي نقض كتابه جملة جملة، وخلص إلى أن الشيخ علي عبد الرازق لم يبق له مخلص سوى أن يقول: «إن هذه الآيات^(١) نزل بها الأمين على أكمل الخليفة، ليتهاجد بها الناس وليرتلوها ترتيلاً»^(٢).

ودافع كثير من الكُتّاب والمثقفين عن فكرة العلمانية واستنساخ التجربة الغربية واستناباتها في التربة الإسلامية دون أدنى تحفظ أو تعديل، حتى إن أحد المثقفين الأتراك كتب عشية ثورة أتاتورك مدافعاً عن توجهاتها: «لا توجد حضارة ثانية، توجد حضارة واحدة، فكلمة حضارة تعني الحضارة الأوروبية، وينبغي استيرادها وفرضها كما هي، بزهرها وشوكها»^(٣).

وعمل كثير من المثقفين العرب على إيجاد التربة المناسبة للعلمانية في البيئة الإسلامية، فانتسبوا إلى فلسفة أبي الوليد بن رشد، ودعوا إلى الرشدية ودافعوا عنها، وفي ذلك يقول الفيلسوف طه عبد الرحمن: «لا نجانب الصواب إن قلنا: إن الهدف من وراء هذه الدعوة؛ هو بث روح «العلمانية» في نفوس المسلمين والعرب، كما هي مبثوثة في الفكر الفلسفي الغربي»^(٤)، واستدل لذلك بما وقع في القرن الثالث عشر، حيث استند ثلثة من مثقفي اللاتينية؛ إلى فهم علماني لفلسفة ابن رشد في خروجهم عن الفلسفة اللاهوتية للكنيسة، وذلك من خلال

(١) المقصود بها آيات القصاص والحدود وغيرهما من الآيات التي تندرج في إطار الحُكم.

(٢) محمد الخضر حسين، نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم: ٢١١.

(٣) الكاتب التركي هو عبد الله سيفيت، مدير جريدة «اجتهاد»، والنص منقول عن: «الفكر الإسلامي، نقد واجتهاد» لمحمد أركون: ٦٥.

(٤) طه عبد الرحمن، حوارات من أجل المستقبل: ٨٦.

الفصل التام بين الدين والفلسفة، وقد استمر التمسك بهذا المبدأ الرُّشدي إلى غاية القرن السابع عشر، وهو الذي مهَّد بالتدريج لظاهرة التحلل من الدين -المنتشرة بين أصحاب عصر التنوير- التي تواصل تأثيرها في المحدثين، وعليه، فإن «إرادة الانتساب إلى ابن رشد إنما هي إرادة الانتساب إلى العلمانية كما تجلَّت في أطوارها الثلاثة: اللاتيني والأنواري والحداثي»^(١).

ولم يكتف المفكر المصري حسن حنفي عند هذا الحد؛ بل حاول أن يُظهر عدم غرابة العلمانية عن الثقافة الإسلامية، وأن العلمانية والإسلام متطابقان، فقال: «الإسلام دين علماني في جوهره، ومن ثم لا حاجة له لعلمانية زائدة عليه مستمدة من الحضارة الغربية»^(٢).

وقد انتشرت مبادئ العلمانية في دول العالم الإسلامي على تفاوتٍ بينها، بل تجرأ البعض على التنصيب الدستوري عليها كما وقع في تركيا الأتاتوركية، وقد ترتب على ذلك تقارب كبير بين تركيا والغرب، حيث «يسود حُكم مسبق إيجابي لا سلبي تجاه تركيا، نظراً لتقدمها على بقية دول العالم الإسلامي واعتمادها إحدى القيم الأساس لأوروبا والغرب، وهي العَلْمنة»^(٣).

ب- على مستوى اللغة العربية: عانت اللغة العربية من عدة آفات، واعترضت سبيل تقدمها ورُقِيَّها عدة معوقات، أهمها: التهميش، والتشويش، والتشويه.

• التهميش: تحتل اللغة الرسمية في البلدان الأوروبية مكانة مركزية

(١) طه عبد الرحمن، حوارات من أجل المستقبل: ٨٧.

(٢) حسن حنفي، حوار الشرق والمغرب: ٣٨.

(٣) محمد أركون، الفكر الإسلامي، نقد واجتهاد: ٦٣.

وأساساً في المجتمع، بل هي خادمة للهوية، ولها دور أساس في الاستقرار والاندماج في المجتمع، ففي هولندا مثلاً، يُشترط في طالب الجنسية الهولندية عدة شروط، منها إجراء امتحان في اللغة الهولندية لقياس قدرة طالب الجنسية على فهمها وقراءتها وكتابتها والحديث بها، ويسمى هذا الامتحان بامتحان الاندماج أو التطبيع، على اعتبار أن اللغة هي الوسيلة الأساس لتيسير وتسهيل الاندماج في المجتمع.

أما قيمة ومكانة اللغة العربية في المجتمعات الإسلامية؛ فأدنى من ذلك بكثير، فرغم التنصيب على اللغة العربية في الدساتير واعتبارها لغة رسمية للتداول والتخاطب في دول شمال إفريقيا، إلا أن «اللغة الرسمية الفعلية» هي اللغة الفرنسية، إذ هي اللغة المستعملة في الإدارة والمستشفيات، وهي لغة الإشهار، ولغة المواقع الرسمية للوزارات والإدارات (إلا ما ندر)، ولغة كليات الطب والهندسة، وحتى حواسيب البريد والبنوك ليست ثنائية البرمجة، وهذا ما يسميه د. عبد القادر الفاسي الفهري: «النزوع إلى أحادية لغوية فرنكفونية»، وهي تستلزم «تهميش اللغة الوطنية أو فك الاستقرار اللغوي»^(١)، وبالتالي توطين اللغة الأجنبية المهيمنة، وتهميش اللغة الوطنية المهيمن عليها.

• التشويش: مورش في الوطن العربي تشويش كبير على اللغة الوطنية، ويمكن الحديث عن مظهرين اثنين من مظاهر التشويش:

أولهما: فرض ازدواجية اللغة على التلاميذ منذ الصغر، حيث يتلقى التلميذ في كثير من البلدان العربية لغةً أجنبيةً منذ مرحلة رياض الأطفال، ويستمر الأمر على هذا طيلة سنوات التعليم الأولى، وهذا فوق طاقة الطفل الذي لم يصل بعد

(١) عبد القادر الفاسي الفهري، اللغة والبيئة: ١٥.

إلى مرحلة نضج النظام اللغوي، يقول أستاذ اللسانيات الدكتور عبد القادر الفاسي الفهري: «وهذا الوضع يؤثر دون شك على نموه اللغوي والمعرفي والفكري، ويخلق له اضطرابات نفسية وهو في الأطوار الأولى من النمو، وهذا الاضطراب في المراحل الأولى من الاكتساب والنمو؛ له نتائج سلبية أكيدة على نموه اللغوي والفكري والمجتمعي فيما بعد، وموقفه من اللغات»^(١)، ومنها اللغة العربية.

ثانيهما: محاولة إحياء العاميات والمناداة بالاعتناء بها والارتقاء بها إلى لغة التدريس، وقد تولى هذه الدعوة بعضُ الكتاب من ذوي الشهرة والمكانة في مجتمعاتهم، مثل سلامة موسى الذي قال: «يجب ألا يكون للمجتمع لغتان، إحداهما كلامية، أي: عامية، والأخرى مكتوبة، أي: فصحي، لأن نتيجة هذه الحال أن اللغة المكتوبة تنفصل عن المجتمع، فتصبح كأنها لغة الكُهان التي لا تُتلى إلا في المعابد، وينقطع الاتصال الفيسيولوجي بينها وبين المجتمع، ولهذا يجب أن تكون غايئنا توحيد لغتي الكلام والكتابة، فنأخذ من العامية للكتابة أكثر ما نستطيع، ونأخذ من الفصحي للكلام أكثر ما نستطيع، حتى نصل إلى توحيدهما»^(٢).

وفي المغرب الأقصى، كان الاستعمار الفرنسي ينوي اتخاذ العامية والبربرية لغتين رسميتين، لكنه لم يفعل لتأكده من فشل هذه الخطوة، وبعد الاستقلال، دعا بعض المثقفين المفرنسين إلى اعتماد العامية لغة للتعبير الأدبي^(٣)، ثم توالى هذه الدعوات حتى يومنا هذا.

(١) عبد القادر الفاسي الفهري، اللغة والبيئة: ٢١.

(٢) سلامة موسى، البلاغة العصرية واللغة العربية: ٤٢.

(٣) عبد الله العروي، من ديوان السياسة: ٥٦.

وإذا كانت اللغة الوطنية لغة الوحدة والتماسك، فإن إحلال العامية بديلاً عنها؛ هو عنصر تمزيق وتفتيت، لأنها تختلف «بحسب اختلاف الأقطار والبلاد، حتى يكاد أهل الأقطار المتباعدة لا يفهم بعضهم خطاب بعض وإن اشتركوا في فهم العربية الصحيحة»^(١).

• التشويه: لم يأل خصوم اللغة العربية جهداً في تشويه صورتها، وقد تجلّى هذا التشويه في مظهرين أساسيين:

أولهما: إظهار اللغة العربية مظهر العاجز غير القادر على حمل العلم والمعرفة بكل فروعها وأصنافها، مما يفرض على الإنسان أن يُسرع الخطى مُيِّمًا وجهه نحو اللغات الأخرى، بدعوى أنها لغات العصر والتقدم والعلوم والمعارف، ففي إفريقيا جنوب الصحراء، تعاونت الكنيسة المسيحية مع الاستعمار لمحاربة اللغة العربية المنتشرة هناك، واتخذت هذه الحرب أشكالاً وألواناً، منها التشنيع عليها «وشن حملات إعلامية تضليلية لتشويهها وتنفير الأفارقة منها، واتهامها بكونها لغة عقيمة ومتخلفة لا تصلح لمواكبة العصر، ولا يمكن أن تساعد على تطوير هذه الشعوب التي يراد تحضيرها وتمدينها في زعمهم»^(٢)، وهذا هو الواقع في أغلب الدول الإسلامية، حيث تُفرض الفرنسية أو الإنجليزية للتدريس في كليات الطب والهندسة وغيرهما من التخصصات والمعارف.

ثانيهما: بالموازاة مع الإقصاء الشامل للغة العربية في المجالات المذكورة أعلاه، نجدها حاضرة بقوة في «الكلاسيكيات والتطرفات»^(٣)، كحضورها في

(١) محمد الخضر حسين، دراسات في العربية وتاريخها: ١٦٠.

(٢) عبد العلي الودغيري، اللغة العربية في منطقة جنوب الصحراء. مجلة الإسلام اليوم، ع: ٢٠، ص: ١٠٢.

(٣) عبد القادر الفاسي الفهري، اللغة والبيئة: ٥٤.

المسلسلات ذات الطابع التاريخي، واتخاذها لغة التداول عند «الإرهابيين» في بعض الأفلام، مع ما لهذا الحضور من بعد سيميائي خطير.

ج - على مستوى دراسة التاريخ: فدراسة التاريخ عند المسلمين تعترضها عدة آفات أهمها: التجهيل والتقديس.

• التجهيل: اهتم المسلمون بالتاريخ وأحداثه، واتخذوه مادة دراسية في منازلهم ومدارسهم وجوامعهم، ولعظم مكانته في الوعي الحضاري؛ قرّن بالقرآن، قال زين العابدين علي بن الحسين: «كنا نعلّم مغازي النبي ﷺ وسراياه كما كنا نعلّم السورة من القرآن»^(١)، ولذلك كان المسلمون على علم تام بتاريخهم ورموزهم، أما مسلمو اليوم فيعانون من عوز وفقر شديد في المادة التاريخية، حيث تراهم يجهلون عن أحداث تاريخهم وأعلامهم كل شيء أو جُلّه، فالنادر من عموم المسلمين من يعرف عمر بن عبد العزيز أو الخلفاء الراشدين، أو يوسف بن تاشفين، أو صلاح الدين الأيوبي، بل يجهلون عن النبي ﷺ الكثير الكثير^(٢).

• التقديس: تُضفي بعضُ الكتابات التاريخية هالةً من القداسة على التاريخ الإسلامي، وكأنه هو الإسلام ذاته، من ذلك قول أحدهم: «إن التاريخ الإسلامي هو الصورة التطبيقية للإسلام، وهو الوثيقة الصحيحة على نجاح الإسلام كمنهج للحياة صالح لكل زمان ومكان»^(٣)، وقد اشترك السنة والشيعَة في هذه النظرة التقديسية، فاعتبروا أشخاصاً بعينهم من

(١) الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع: ٢/١٩٥.

(٢) في أحد امتحانات البكالوريا، أرّخ أحد التلاميذ للهجرة النبوية أنها كانت سنة ٢٠١٠ م.

(٣) منهج كتابة التاريخ الإسلامي، (تأليف مشترك): ١٩.

الأئمة المعصومين، مما يترتب عنه القول بقدسية أقوالهم وتصرفاتهم ومواقفهم التاريخية، في حين أن الجميع بشر، يصيبون ويخطئون، وقد دعا المفكر القطري الدكتور عبد الحميد الأنصاري^(١) إلى فرز الدين عن التاريخ، باعتبار أن الدين مقدس، أما تاريخ المسلمين فهو تاريخ بشر غير مقدسين.

د - على مستوى القيم: لعل أخطر الآفات هي التي اعترضت منظومة القيم الإسلامية، وهي صنفان: أحدهما مرتبط بـ (الآخر)، وهو ما نسميه بالاستعلاء والإلغاء والاستعداد، وثانيهما مرتبط بالذات، وهو ما نسميه بالاستتباع والابتداع.

١ - الآفات التي تعترض القيم الإسلامية المرتبطة بـ (الآخر):

• الاستعلاء: يحس الإنسان الغربي بتفوق قيمه على غيره من الأمم والشعوب، وحساسيته تجاه غيره متفاوتة الدرجات، أخطرها وأعلاها: حساسيته تجاه الإسلام وقيمه وأمته، لذلك يتعامل معهم وفق ثنائية المركز والهامش، وهي نظرة عامة وشاملة لكل النخب الغربية مثقفين وسياسيين، لذلك لا يرون غضاضة في إلحاق جزء من ذلك الهامش بهم، مثل تسمية الفيلسوف الألماني هيغل لإفريقيا شمال الصحراء بـ (إفريقيا الأوروبية)^(٢)، بل اعتبر هذا الربط والإلحاق واجبا فقال: «والجزء الشمالي من إفريقيا يقع على البحر المتوسط وعلى المحيط الأطلنطي، وهو إقليم رائع، كانت توجد فيه قرطاجة فيما مضى، وتوجد به الآن مراكش الحديثة،

(١) ضمن مشاركته في برنامج «إضاءات» الذي تبثه قناة العربية، حلقة يوم ١١ / ٤ / ٢٠٠٧.

(٢) هيغل، العقل في التاريخ، من محاضرات في فلسفة التاريخ: ١٧٢.

والجزائر، وتونس، وطرابلس، ولقد كان من الواجب ربط هذا الجزء من إفريقيا بأوروبا»^(١)، ولقد حققت فرنسا رغبة هيغل عام ١٨٣٠م - قبل وفاة هيغل بسنة - حين أقدمت على احتلال الجزائر احتلالاً استيطانياً، ألحقت بموجبه القطر الجزائري بالوطن الفرنسي.

ونتيجة لعقلية الاستعلاء المسيطرة على العقل الغربي، أصبح المثقفون الغربيون يعتبرون قيمهم قيمةً كونيةً يجب على الغير الخضوع لها والتزام أدبياتها، وقد تجلّى ذلك بوضوح لا لبس فيه بعد أحداث أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١م، حيث أصدر ٦٠ من كبار المثقفين الأمريكيين بياناً بعنوان: «لماذا نخوض الحرب؟»، عبروا في الفقرة الأخيرة منه عن تزكيتهم للحرب التي أقدمت عليها حكومتهم، ومنحوها شرعيةً قيمةً «كونية»، قائلين: «إننا باسم الأخلاق الإنسانية الكونية، وبوعي تام بقيود ومقتضيات الحرب العادلة، نساند قرار حكومتنا ومجتمعنا في استعمال قوة السلاح مع هؤلاء»^(٢).

• **الإلغاء:** لقد ورثت عقلية الاستعلاء؛ السيادة في الكون وحق التصرف المطلق فيه دون اعتبار للآخر، وهذا الإلغاء وإقصاء حضاري أحس بخطورته كثير من مثقفي الأمة الإسلامية، وهو ما أسماه خبير المستقبلات الدكتور المهدي المنجرة بـ«الهيمنة الثقافية»^(٣).

(١) هيغل، العقل في التاريخ، من محاضرات في فلسفة التاريخ: ١٧٣.

(٢) أَلَّفَ الفيلسوف المغربي الدكتور طه عبد الرحمن كتاباً بعنوان «الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري»، حلل فيه بعمقٍ فكري وبُعدٍ فلسفي؛ رسالة المثقفين الأمريكيين الستين، وهو كتاب مفيد وقيّم في بابه.

(٣) قال الدكتور المهدي المنجرة: «الخطر الكبير الذي يواجهه العالم اليوم هو الهيمنة الثقافية التي يدفع بها مسلسل العولمة ويشجعه». انتفاضات في زمن الذلقرابية: ٥٥. وقال أيضاً: «ففي الوقت الذي كانت فيه هذه الدول تفكر في التحرر سياسياً واقتصادياً، كان الاستعمار

هذه الهيمنة تعمل على ضرب الخصوصيات الثقافية لكل مجتمع، وتُذيب المجتمعات في بوتقة واحدة، وهو ما عبّر عنه الدكتور طه عبد الرحمن بـ«التخريب الثقافي» و«التميط الثقافي»^(١).

مثال التخريب الثقافي: عمل الاستعمار الفرنسي على تخريب الشخصية المسلمة؛ من خلال فرض نظام تعليمي صرف في دول المستعمرات، فكان يفرض على المغاربة مقرراتٍ يحفظون نصوصها، تتضمن عباراتٍ من قبيل: «إن فرنسا أمنا جميعاً»، و«نحن ننتمي إلى أجدادنا الغالين»^(٢)، وهو الأمر ذاته الذي انتقده الزعيم الغيني المسلم أحمد سيكوتوري فقال: «لقد تعلمنا نحن المثقفين الإفريقيين في مدارس الاستعمار؛ تاريخ فرنسا، وحروب الغال، وحياة جان دارك، وبلغه فرنسا قرأنا أشعارَ لامارتين، كما لو كانت بلاد إفريقيا بدون تاريخ، وحتى بدون موقع جغرافي، وحتى بدون قيم وأخلاق، وقد قدم الاستعمار لنا من العلم والثقافة القدرَ الذي يرى أنه يخلق منا آلاتٍ ترتبط مصالحها بعجلة الاستعمار»، ولتحقيق هذه الغاية؛ كان لا بد من تخريب نفسية الإنسان الإفريقي المسلم، حيث رصد سيكوتوري ملاحظةً بالغة الأهمية حين قال: «لقد أراد المستعمرون للمعلم الإفريقي أن يظل في حالة ثقافية منحطة، حتى يتخرج المتعلمون على يديه وهم أكثر انحطاطاً، لقد أراد الاستعمار للمثقفين الإفريقيين أن يفكروا بفكر ديكارت، وعقلية برجسون، ولم يسمح

الذي يحتفظ بخبرته الطويلة، يعمل على تسريب هيئته الثقافية والحضارية وقيمه». الإهانة في عهد الميغامبريالية: ٥٧.

(١) طه عبد الرحمن، الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري: ٩٨.

(٢) عبد الهادي بوطالب، أزمة الهوية في نظم التعليم في العالم الإسلامي. مقال في مجلة الأكاديمية، ع: ٨، ص: ١١١.

لهم بالتفكير في مناخ قيمهم وثقافتهم وتراثهم الثقافي، لهذا لا يعرف كثيرٌ من شبابنا فلسفة المفكرين الإفريقيين أمثال المناضل الوطني الحاج عمر الغيني، وأحمد ساموري توري، وإذا استمر بنا الوضع على هذا النحو، فلن نستطيع أن ننمي شخصيتنا الإفريقية التي هي الطريق الوحيد للنهضة في إفريقيا^(١).

مثال التنميط الثقافي: التنميط الثقافي هو ضرب الخصوصيات الثقافية والقيمية للمجتمعات وفرض الخصوصية الثقافية والقيمية الغربية مكانها، فيسعى الغرب «إلى فرض رؤيته الخاصة، ومعاييره الثقافية على باقي الأمم، معممًا عليها نمطه الخاص في التفكير والسلوك»^(٢)، كل ذلك تحت شعار القيم الكونية، ومن تجلياته المحاولات الحثيثة للمنظمات والجمعيات غير الحكومية الساعية إلى إدماج حقوق ما سمّته بنوع بشري ثالث ضمن حقوق الإنسان، وكانت مُسوِّغاتهم لهذا الموقف الشاذ؛ مبنيةً على أن حقوق الإنسان ينبغي أن تُعوّلم على ضوء تقسيم البشر إلى ذكر وأنثى وما بينهما، وأن تعطى لهذا الجنس الثالث حقوقًا متساوية مع الذكور والإناث^(٣).

• الاستعداد: النزاع أو الصراع الغربي الإسلامي؛ ذو جذور ثقافية بالأساس، ففي القرن الثامن عشر، ألّف فولتير مسرحية شهيرة أساء فيها إلى الإسلام، واتهم النبي ﷺ بالتعصب، وقد نُشّطت الآن تلك التصورات السلبية المشكّكة عن الإسلام وقيمه في الصراعات الأيديولوجية الحديثة، «وأصبحت ملائمةً جدًا للمتخيل النضالي الغربي،

(١) نقلا عن مقال «أزمة الهوية في نظم التعليم في العالم الإسلامي»: ١١٠.

(٢) طه عبد الرحمن، الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري: ٨٤.

(٣) عبد الهادي بوطالب، في نقد العولمة، حسناتها وسيئاتها (مقال)، مجلة الإسلام اليوم، ع: ٢٠.

وأصبح هذا المتخيل مستشاراً وحامياً تجاه كل ما يخص الإسلام، وازداد ضراوةً بسبب اندلاع حركات التحرر الوطني المضادة للاستعمار منذ الخمسينيات^(١)، ولعل هذا الاستعداد هو الذي جعل الرئيس الأمريكي يعتمد إلى تقسيم العالم إلى: محور الشر، ومحور الخير.

٢ - الآفات التي تعترض القيم الإسلامية المرتبطة بالذات:

• الاستتباع: بقدر ما يُصِرُّ المفكرون الغربيون على تمايزهم الشديد عن المجتمع الإسلامي ثقافة وقيماً، بقدر ما نجد ثلّة من المثقفين العرب ينفون هذا التمايز، وقد عبّر عن ذلك بجلاء الدكتور طه حسين حين قال: «كلا، ليس بين الشعوب التي نشأت حول بحر الروم وتأثرت به فرق عقلي أو ثقافي ما»^(٢)، بل دعا بصريح العبارة إلى الذوبان في الآخر فقال: «نريد أن نتصل بأوروبا اتصالاً يزداد قوةً من يوم إلى يوم، حتى نصبح جزءاً منها لفظاً ومعنى، وحقيقةً وشكلاً»^(٣)، ولم يميز بين سلبيات وإيجابيات الحضارة الأوروبية، بل دعا إلى ضرورة «أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم، لنكون لهم أنداداً، ولنكون لهم شركاء في الحضارة خيرا وشرها، حلوها ومُرّها، وما يُحب منها وما يُكره، وما يُحمد منها وما يُعاب»^(٤)، هذه الدعوة تعكس بجلاء إصابة جزء غير يسير من النخبة بهزيمة نفسية وحضارية يصعب تجاوزها أو

(١) محمد أركون، أين هو الفكر الإسلامي المعاصر؟: ١١٠.

(٢) طه حسين، مستقبل الثقافة: ٢٨.

(٣) طه حسين، مستقبل الثقافة: ٣٣.

(٤) طه حسين، مستقبل الثقافة: ٣٩.

علاجها.

• الابتداع: ابتدع بعض المسلمين قيماً جديدة تسيء إلى الإسلام وتُشوّه صورته، ويمكن لنا أن نتأمل تمسك بعض المسلمين بقيم التشدد بدل التسامح، والعنف بدل الرفق، والاستبداد بدل الحرية، وذلك في الأمثلة التالية:

- حادث اقتحام السفارة الأمريكية في طهران، واحتجاز ٥٢ مواطناً أمريكياً لمدة ٤٤٤ يوماً، (١٩٧٩ - ١٩٨١ م).
- ذبح أبي مصعب الزرقاوي لأحد الأمريكيين وبث الشريط في وسائل الإعلام (٢٠٠٤ م).
- اختطاف جماعة بوكو حرام لـ ٢٧٦ طالبة شمال نيجيريا (٢٠١٤ م).

هذه الأحداث يلتقطها الإعلام الغربي ويستغلها بخلفية إيديولوجية، فيصّخّمها ويتخذ منها تيمةً أساساً في كثير من الكتابات والبرامج الحوارية والأفلام الوثائقية، مما يُرسخ لدى الإنسان الغربي مسلّمة مفادها أن الإسلام دين الإرهاب والعنف، «فيصعب على كثير من مراقبي الغرب تفهّم المسلمين حين يزعمون أن الإسلام إنما هو دين السماحة المطلقة بلا منازع»^(١).

(١) مراد هوفمان، الإسلام كبديل: ١١٥.

ثالثاً: سبل تجاوز معوقات الثقافة الإسلامية

ل طرح البديل الثقافي للأمة الإسلامية، لا بد من التعرف على المقومات الأساس، ثم فحص ما يعترضها من معوقات، ودون هذه المقدمات يصعب على المسلمين أن يقدموا للعالم بديلهم المفترَض إسهاماً منهم في إنقاذ الإنسانية.

أ - على مستوى الدين الإسلامي: تشجيع الاجتهاد والتجديد في الدين، وعدم التوقُّع في الماضي الذي أنجب أعلاماً اجتهدوا لعصرهم، بشرط أن يستند هذا الاجتهاد على:

- الشمول والتكامل: بالنظرة التكاملية للعلوم الإسلامية، مع الانفتاح على العلوم الإنسانية، وتجاوز النظرة التجزئية غير التكاملية للعلوم الإسلامية.

- أهمية المقاصد: ضرورة عدم قصر الدراسة الشرعية على تلك المرتبطة بمباني النصوص، ومحاولة النفوذ إلى روح النص ومعناه، استحضاراً لمقولة الأستاذ علال الفاسي: «والشريعة أحكام تنطوي على مقاصد، ومقاصد تنطوي على أحكام»^(١)، أما الاجتهادات البعيدة عن روح الدين ومقاصد التشريع، فلسنا ملزمين بها وإن كانت صادرة من فقهاء وأعلام نحترمهم ونُجلِّهم.

- استحضار البعد الروحي للشريعة الإسلامية: بعدم التعامل مع الأحكام الشرعية معاملة جافة، بل عرضها «عرضاً يحيي في النفوس أبعادها

(١) علال الفاسي، مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها: ٤٣.

الروحية التي تصير بها الأحكام مجلبة للتقوى والإخلاص، لا تقاريرات قانونية جافة»^(١).

ب - على مستوى اللغة العربية:

• التمكين اللغوي داخلياً: فتدريس الطفل في مرحلة رياض الأطفال للغات الأجنبية؛ بمثابة اغتصاب لطفولته، لذا يُرجى تمكينه من لغته الوطنية بغمس مبكر *early immersion* لتلافي الانعكاسات السلبية للازدواجية على النمو اللغوي والمعرفي، وتأجيل الانفتاح على اللغة الأجنبية إلى سن التاسعة أو بعدها^(٢).

• الاجتهاد اللغوي: إدخال اللغة العربية إلى كليات الطب والهندسة وعموم المعاهد العليا، لتحقيق عدة أهداف:

أولها: ربط علماء الأمة ونخبها بحضارتهم وثقافتهم.

ثانيها: عدم إقصاء كثير من الكفاءات العلمية، لأن كثيراً من أبناء المسلمين يدرسون العلوم في المراحل الثانوية باللغة العربية، ولا يستطيعون ولوج المعاهد العليا لعدم قدرتهم على تجاوز العائق اللغوي، فتُحرم الأمة من كفاءاتهم وقدراتهم.

ثالثها: تجسير الهوة بين عموم الشعب وهذه العلوم، فإذا ذهب إنسان مغربي أو مصري عند الطبيب، فإن الطبيب يشرح له حالته الصحية ويقدم له النصائح الطبية بالفرنسية أو الإنجليزية، فتكون اللغة الأجنبية عائقاً تحول دون تحقيق الفائدة.

(١) عبد المجيد النجار، في المنهج التطبيقي للشريعة الإسلامية: ٦٣.

(٢) عبد القادر الفاسي الفهري، اللغة والبيئة: ١٩.

ولإدخال اللغة العربية إلى هذه المعاهد، لا بد من اجتهاد لتطوير اللغة وتنميتها، وليس ذلك بعزيرٍ على اللغة العربية، ويمكن أن يكون هذا الاجتهاد بطريقتين:

- اجتهاد الصناعة والصياغة: لأن اللغة العربية تُسَعَفُ المجتهد بما فيها من الاشتقاق والمجاز والمصدر الصناعي وغير ذلك، فإذا نظر المجتهد إلى كلمة «المؤتنب» في المعاجم اللغوية، وجدها تعني: «مَن لا يشتهي الطعام»، لذا صح له أن يُدخل في المعجم الطبي كلمة «ائتناب» للدلالة على علة انقطاع شهوة الطعام^(١)، ولهذا الاجتهاد أمثلة كثيرة.
- اجتهاد الانفتاح والتعريب: فللمجتهدين أن يفتحوا على المصطلحات العلمية الأجنبية بُغية تعريبها وإحاقها بالمصطلحات العربية، وهو الأمر الذي لم يرفضه مجمع اللغة العربية، وله في العرب الأقدمين قدوة، إذ قالوا: «الترياق» و«القولنج» وهما كلمتان يونانيتان، والأول دواء مُرَكَّبٌ يُطلق على ما له نفع عظيم، والثاني مرض معوي، والأمثلة في هذا وفيرة كثيرة.
- الانتشار اللغوي: الوعي بأهمية نشر اللغة العربية خارج الوطن العربي^(٢)، وعدم اعتبار ذلك القطاع غير منتج، لما يترتب عن ذلك من أثرٍ إيجابي على المستوى الثقافي والاقتصادي، وهنا لا بد من استحضار مقولة ستالين: «اللغة أداة من أدوات الإنتاج»، إضافة إلى مقولة ميشيل

(١) محمد الخضر حسين، دراسات في العربية وتاريخها: ٢٣٦ - ٢٣٧.

(٢) ليس المقصود من هذا الانتشار فرض اللغة العربية على غير الناطقين بها، وإلا كنا مطالبين بما انتقدناه على الغرب، وحتى الإسلام لم يفرضها على غير العرب، بل جعل تعلمها والتبحر فيها من فروض الكفاية، دراسات في العربية وتاريخها: ١٦١.

جوبير وزير التجارة الخارجية الأسبق في فرنسا: «إن بيع الفرنسية من أولوياته الوطنية»^(١).

ج - على مستوى الدراسة التاريخية: فلا يمكن إغفال دور وأهمية دراسة التاريخ في تشكيل وعي الإنسان المعاصر، إلا أن التعامل مع التاريخ لا بد من أن يتخذ مسلكاً منهجياً وعلمياً، يتوخى الموضوعية ويتعد عن آفتي التقديس والتشويه.

د - على مستوى القيم: يجب أن نستحضر السمو الروحي والارتقاء القيمي الذي يجب أن يوصف به الإنسان المسلم والمجتمع المسلم، على اعتبار حملهما لواء شريعة ربانية هي شريعة التخلق بامتياز، وفي الحديث الشريف: «إنما بُعثت لأتمم صالح الأخلاق»^(٢)، قال الإمام الشاطبي رحمه الله: «الشريعة كلها إنما هي تخلق بمكارم الأخلاق»^(٣)، لذا وجب استحضار الأسس الثلاث لـ «نظرية التعبد» التي طرحها الدكتور طه عبد الرحمن، وهي ثلاثية^(٤):

• التعرف على سيد الكون: التعلق بالله تعالى والتعرف عليه في الأفعال والأعمال، صغيرها وكبيرها، لضمان التوفيق والفلاح، ومن تجنّب هذا قطع عن نفسه أسباب السداد.

(١) عبد القادر الفاسي الفهري، اللغة والبيئة: ٧٥.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده.

(٣) الشاطبي، الموافقات: ٧٧/٢.

(٤) طه عبد الرحمن، نظام العالم العلمي التقني بين الممكن العقلي والواجب الخُلقي. بحث منشور ضمن أعمال دورة أكاديمية المملكة المغربية «المعرفة والتكنولوجيا»: ص: ١٢٤ وما بعدها.

- ربط الأعمال بأحكام سيد الكون: فبعد العلم بالله تعالى؛ يأتي ما أسماه الخطيب البغدادي: «اقتضاء العلم العمل»، أي عدم انفكاك العلم عن العمل، وهي الطريقة المثلى لمزيد التخلق السلوكي، وهذا الوصل بين العلم والعمل هو الذي يرتقي بالعمل إلى درجة السداد.
- ربط المعرفة بالخير: لأن العلم بسيد الكون وربط الأعمال بأحكامه، يحولان دون خروج الإنسان إلى الضرر، فلا يكون في معرفته هذه إلا الخير لنفسه خاصة، وللناس عامة.

وإذا تحققت هذه المنظومة، فإن المسلم لن يصدر منه إلا الخير، وسيبتعد عن نقيضه، أما إذا ابتعد عن قيم ومبادئ الإسلام، فستفضه الأمة المسلمة قبل غيرها، ولا غرابة أن نقرأ عند مفكر مسلم أن بعض الحركات الإسلامية «جاءت بإسلام لا نعرفه»^(١).

(١) المهدي المنجرة، الإهانة في عهد الميغالإمبريالية: ٥٩.

خلاصة وتوصيات:

من خلال هذه الورقة، يتبين أن الاهتمام بالثقافة الإسلامية ليس ترفاً فكرياً، بل هو ضرورة حضارية، إذا لم يسع المسلم إلى التعرف عليها والتزام مبادئها ومبادئها، لن يرقى إلى مستوى الخلافة وتحمل مسؤولية الأمانة، ولتحقيق ذلك، نقترح الخطوات والإجراءات التالية:

- الإسهام في إبداع منهج تربوي ملائم وليس مقلداً أو مستنسخاً، يستحضر مقومات الثقافة الإسلامية مشتملة.
- بلورة القيم الإسلامية والمعرفة التاريخية في منتج إعلامي بطرق شيقة ورائقة لتنفذ إلى العقول والوجدان.
- الإنفاق في المجال الثقافي، وعدم عدّ القطاع الثقافي والتربوي قطاعاً غير منتج.
- عدم إغفال دور الفن في النهضة الثقافية، كالشعر والقصة والرواية والعمارة وغيرها.
- التركيز على بناء الذات أهم من التفكير في عدااء الآخر، لأن المستقبل للإسلام وثقافته وحضارته، والمسلمون في تزايدٍ ديمغرافي مستمر، واستعداؤه ضرب من ضروب الغباء^(١).

(١) المهدي المنجرة، الإهانة في عهد الميغا إمبريالية: ٤٤.

المراجع المعتمدة

الكتب:

أركون، محمد:

- ١ - أين هو الفكر الإسلامي المعاصر؟ ترجمة وتعليق: هاشم صالح. دار الساقى، لندن. ط: ٢. ١٩٩٥.
- ٢ - الفكر الإسلامي، نقد واجتهاد. ترجمة وتعليق: هاشم صالح. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
البغدادي، أحمد بن علي الخطيب:
- ٣ - الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع. تحقيق: محمود الطحان. مكتبة المعارف. بيجوفيتش، علي عزت:
- ٤ - الإسلام بين الشرق والغرب. مؤسسة العلم الحديث، بيروت، ط: ١. ١٤١٤ هـ
جمال عبد الهادي محمد مسعود، ووفاء محمد رفعت جمعة (تأليف مشترك):
- ٥ - منهج كتابة التاريخ الإسلامي، لماذا وكيف؟. دار الوفاء. مصر. ١٤١٤ هـ
حنفي، حسن:
- ٦ - حوار المشرق والمغرب (بالاشتراك مع د. محمد عابد الجابري).
المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. ط: ١. ١٩٩٠.
الخضر حسين، محمد (شيخ الأزهر):
- ٧ - الحرية في الإسلام. دار الاعتصام. دت.
- ٨ - دراسات في العربية وتاريخها. نشر المكتب الإسلامي ومكتبة دار الفتح.
دمشق، ط: ٢. ١٣٨٠ - ١٩٦٠.
- ٩ - مختارات من تراث الشيخ محمد الخضر حسين. ج: ٢. هدية مجلة الأزهر، ربيع الأول ١٤٢٢ هـ.

- ١٠ - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم. المطبعة السلفية، القاهرة. ١٣٤٤ هـ.
الدجوي، يوسف:
- ١١ - مقالات وفتاوى الشيخ يوسف الدجوي. القاهرة. ١٤٠١ - ١٩٨١.
سلامة موسى:
- ١٢ - البلاغة العصرية واللغة العربية. سلامة موسى للنشر والتوزيع. ١٩٦٤.
الشاطبي، إبراهيم بن موسى أبو إسحاق:
- ١٣ - الموافقات في أصول الشريعة. تعليق الشيخ عبد الله دراز. دار المعرفة. دت.
ابن الصديق، عبد الله الغماري:
- ١٤ - خواطر دينية. مكتبة القاهرة، ط: ١. ١٣٨٨ - ١٩٦٨.
طه حسين:
- ١٥ - مستقبل الثقافة في مصر. دار المعارف، القاهرة. ط: ٢. دون تاريخ.
طه عبد الرحمن:
- ١٦ - الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري. المركز الثقافي العربي. الدار
البيضاء. ط: ١. ٢٠٠٥.
- ١٧ - حوارات من أجل المستقبل. منشورات الزمن. المغرب. ٢٠٠٠.
- ١٨ - نظام العالم العلمي التقني، بين الممكن العقلي والواجب الخُلقي.
مداخلة ضمن أشغال الدورة الأولى لأكاديمية المملكة المغربية المنشورة
بعنوان «المعرفة والتكنولوجيا». مطبعة المعارف الجديدة، الرباط. ١٩٩٣.
العروي، عبد الله:
- ١٩ - من ديوان السياسة. المركز الثقافي العربي.
الفاسي الفهري، عبد القادر:
- ٢٠ - اللغة والبيئة. منشورات الزمن. المغرب. ٢٠٠٣.

الفاسي، علال:

٢١ - مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها. مكتبة الوحدة العربية. الدار البيضاء. دون تاريخ.

الكوثري، محمد زاهد:

٢٢ - مقالات الكوثري. المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر. دون تاريخ.

مراد هوفمان:

٢٣ - الإسلام كبديل. نشر مجلة النور الكويتية ومؤسسة بافاريا. ط: ١. ١٤١٣ - ١٩٩٣.

المنجرة، المهدي:

٢٤ - الإهانة في عهد الميغا إمبريالية. مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط: ٣. ٢٠٠٤.

٢٥ - انتفاضات في زمن الذلقراطية. البوكيلي للطباعة والنشر، القنيطرة، ط: ١. ٢٠٠١.

النجار، عبد المجيد:

٢٦ - في المنهج التطبيقي للشريعة الإسلامية. الزيتونة للطباعة والنشر. ط: ١.

١٤١٥ - ١٩٩٤.

هيغل:

٢٧ - العقل في التاريخ. ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام. دار التنوير، بيروت. ط: ٣. ٢٠٠٧.

الدوريات:

• الإسلام اليوم. مجلة تُصدرها منظمة الإيسيسكو. العدد: ٢٠. سنة ١٤٢٤ - ٢٠٠٣.

في نقد العولمة، حسناتها وسيئاتها. د. عبد الهادي بوطالب.

اللغة العربية في منطقة جنوب الصحراء: الماضي الحاضر المستقبل، د. عبد

العلي الودغيري.

• الأكاديمية. مجلة تصدرها أكاديمية المملكة المغربية. العدد: ٨. سنة ١٤١٢ هـ

أزمة الهوية في نظم التعليم في العالم الإسلامي. د. عبد الهادي بوطالب.